



استحضار الشخصيات في شعر الشريف الرضي

خميس أحمد محمد ريان

وزارة التربية والتعليم- رام الله- فلسطين

أستاذ مساعد غير متفرغ- جامعة بيرزيت- فلسطين

khrayyan69@gmail.com

استلام البحث: ٢٠٢٠/٩/٢٥ مراجعة البحث: ٢٠٢٠/١٠/٢٥ قبول البحث: ٢٠٢٠/١١/١٨ DOI: <https://doi.org/10.31559/JALLS2020.2.4.2>

الملخص:

جاء هذا البحث موسوماً بـ (استحضار الشخصيات في شعر الشريف الرضي)؛ لتوضيح هذه في شعر الشريف الرضي، والوقوف عند أبرز الشخصيات المستحضرة، واستنتاج الدوافع والأهداف التي حثت بالشريف لاستحضارها في شعره. وقسم البحث إلى تمهيد يبرز العلاقة بين ثلاثية الإبداع: المبدع والنص والمتلقي، ويشير إلى الاستحضار بإيجاز، وأربعة مباحث: خصص الأول لاستحضار الشخصيات التاريخية في شعر الشريف الرضي، وأما الثاني فخصص لاستحضار الشخصيات الدينية، وجاء الثالث عارضاً استحضار الشخصيات الأدبية، وعرض الرابع استحضار شخصية المرأة. وخلص البحث إلى أنّ الشاعر قد استحضر شخصيات متعددة تنوّعت على سياقات مختلفة: تاريخية، ودينية، وأدبية، وكان للمرأة حضور واضح بين هذه الشخصيات، وتبين أنّ هناك صلة وثيقة بين الشخصيات المستحضرة، ونفسية الشاعر القائمة على الزهو بالنسب الشريف الذي ينتهي إليه الشاعر، وإعجاب الشاعر بصفاته التي تميّزه عن غيره من الناس، ومقدرته الشعرية التي تجعله يفوق غيره من الشعراء.

الكلمات المفتاحية: الاستحضار؛ الشريف الرضي؛ الشخصية التاريخية؛ الشخصية الدينية؛ الشخصية الأدبية.

المقدمة:

يأتي هذا البحث موسوماً بـ (استحضار الشخصيات في شعر الشريف الرضي)؛ لتوضيح هذه الظاهرة في شعر الشريف الرضي، والوقوف عند أبرز الشخصيات المستحضرة، واستنتاج الدوافع والأهداف التي حثت بالشريف الرضي لاستحضارها في شعره. ولعلّ أبرز الأسباب التي تدفع إلى مثل هذه الدراسات هو الكشف عن جماليات النص الشعري القديم، والوقوف عند التقنيات الفنية التي كان يوظفها الشعراء في التعبير عن أفكارهم، والبوح بمكنوناتهم، وإثبات مقدرة القدماء من خلال الدراسات النصية على طرح مثل هذه التقنيات ببنية عالية، ولدوافع متعددة؛ ممّا يحقّق مفهوم الشعرية في النص الشعري القديم.

ومن خلال اطلاعي على الدراسات التي عرضت للشريف الرضي، فإنّي لم أعثّر على دراسة تقف عند هذه القضية غير أنّ هناك ذكراً لبعض الشخصيات التي استحضرها الشريف الرضي دون تحليل لها في كتاب (شعر الشريف الرضي في ضوء علم اللغة النصي لعباس الغزاوي)؛ لذا فمن الضروري الوقوف عند هذا الموضوع، وقراءته قراءة موسّعة وجادة.

وقد اطّلت على دراسات سابقة مماثلة طبّقت على الشعر المعاصر من مثل:

١. استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر لعليّ عشري زايد.

٢. دور استدعاء الشخصيات التراثية في توجيه الدلالة: شعر محمد القيسي نموذجاً لزهرة أبو كشك، وعاتكة العبيدي.

٣. استدعاء شخصيات الشعراء في شعر محمود درويش لعليّ نظري.

ويرصد البحث الشخصيات التي استحضرها الشريف الرضي في سياقاتها المختلفة: التاريخية، والدينية، والأدبية، ويفرد قسماً بالمرأة؛ لذا قسم إلى مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة؛ جاءت المقدمة عارضة ملخص البحث، وأهدافه، ومنهجه، وأسباب اختيار الموضوع، وطرح مجموعة من الأسئلة التي يؤمّل أن يجيب عنها البحث، أما التمهيد فقدّم دراسة نظرية حول عناصر الإبداع لأيّ نص شعري، وخصّص المبحث الأول من البحث للوقوف على أبرز الشخصيات التاريخية التي استحضرها الشاعر، أما المبحث الثاني

فقرأ الشخصيات الدينية التي استحضرها، وتتبع المبحث الثالث الشخصية الأدبية التي استحضرها الشاعر، في حين جاء المبحث الرابع متتبّعاً شخصية المرأة التي لاقت حضوراً في شعر الشريف في سياق الحديث بالمرأة لا عنها. وجاءت الخاتمة مجلية أبرز النتائج والتوصيات التي خرج بها الباحث.

ويأمل الباحث أن يجيب البحث عن مجموعة من الأسئلة المفترضة، أبرزها:
 أولاً: ما السياقات التي برزت فيها الشخصيات المستحضرة لدى الشريف الرضي؟
 ثانياً: ما الدوافع وراء استحضار الشخصيات في شعر الشريف الرضي؟
 ثالثاً: هل هناك صلة بين استحضار هذه الشخصيات، ونفسية الشاعر وصفاته؟
 رابعاً: أي الشخصيات كانت أكثر حضوراً في شعر الشريف الرضي، ولماذا؟
 خامساً: إلى أي حد عبّرت الشخصيات المستحضرة عن مذهبية الشاعر؟

ويشكل ديوان الشريف الرضي المصدر الرئيس الذي يعتمد عليه البحث، مع الاستفادة من المراجع التي تحدّثت عن الشاعر من جهة، والمراجع التي أشارت إلى استحضار الشخصيات من جهة أخرى. ويسلط البحث الضوء على ظاهرة استحضار الشخصيات، وبيان دلالاتها وأهميتها في نقل المعنى، أو البوح بعواطف الشاعر ومكنوناته، أو الكشف عن نفسيته التي كانت تفيض طموحاً وزهواً؛ من خلال وصف الظاهرة وتحليلها كما تبدو في شعر الشريف الرضي.

واعتمد البحث مصطلح (الاستحضار)، بديلاً عن الاستدعاء، في كل أقسامه؛ نظراً لارتباط كلمة الاستدعاء بنوع من المكاتبات الرسمية تلك المستخدمة في المحاكم.

وبما أنّ المبدع يبدي اهتماماً كبيراً بمتلقي نصّه، فإنّ توظيف هذه الظاهرة في شعر الشريف الرضي يركّز بشكل ليزري على المتلقي لا سيّما في موضوعات المدح والفخر. إضافة لما يحققه هذا الاستحضار من كشف واضح، وجلي، لما يكنّه المبدع، ويهدف إلى نقله لمتلقيه بقصدية.

ويدور البحث حول الشريف الرضي الشاعر العباسي الذي عاش بين (٣٥٩-٤٠٦ هـ)، ويظهر أنّه عاش جلاً حياته في القرن الرابع الهجري، وتبوأ مكانة مرموقة على الصعيدين الاجتماعي والسياسي، وكان واحداً من الأدباء المعدودين في القرن الرابع الهجري، وإطالة القرن الخامس.

التمهيد:

تقوم أيّ عملية إبداعية على عناصر إشكالية ثلاثة: هي المبدع، والنص، والمتلقي، ومن الضروري أن يحصل التكامل بين هذه العناصر الثلاثة؛ للوصول إلى الأهداف المرجوة من العملية الإبداعية؛ فالمبدع يقوم بدوره المحوري في توظيف قدراته المختلفة؛ لإخراج نصّ مُبدع يؤدي وظيفته، حاملاً رسالته للمتلقي المفترض، الذي بدوره يغلق الدائرة بتحقيق الأهداف المبتغاة من العملية الإبداعية برمتها، معتمداً بذلك على ثقافته الخاصة، واستعداده النفسي، وموهبته الراسخة، ومقدرته على التوقّع لكل الاحتمالات التي تتجسّد من خلال رسالة المبدع المتمثلة بنصّه الإبداعي.

ويهدف المبدع إلى تحقيق نوع من الإقناع والإمتاع بهدف تثبيت فكرة معينة تعتمل في ذهنه، يعمل على توصيلها إلى المتلقي في محاولة منه لإقناعه بها، ومن ثمّ تحقيق هزة عاطفية ووجدانية عنده ممّا يرسّخ هذه الفكرة ويثبّتها في ذهن المتلقي وقلبه. (دراسة، ٢٠١٠).

ومن أجل تحقيق هذه الأهداف لا بدّ للمبدع أن يوظّف كلّ طاقاته الإبداعية في إخراج نصّه إخراجاً فنياً رائعاً، ولعلّ من أبرز الوسائل في هذا السياق توظيف جملة من التقنيات المختلفة التي تكشف الطاقة الإبداعية للمبدع، وتحمل الفكرة والعاطفة وتسهم في ترسيخها في ذهن المتلقي، ووجدانه، ومنها استحضار الشخصيات.

وتشكّل السياقات المختلفة: التاريخية، والدينية، والأدبية، والتراثية، مصادر خصبة لمهمة للشعراء، يهلون منها في التعبير عن تجاربهم الشعريّة، مبرزين مقدرتهم الفنيّة من خلال ذلك، مخرجين نصوصاً تتسم بالشعريّة، موصلين رسالتهم إلى المتلقين بفنية عالية. وتعدّ الشخصيات على اختلافها وتنوعها: تاريخية، ودينية، وأدبية جزءاً مهماً من السياقات الحياتية المختلفة، وكلّ شخصية منها تعبّر عن فكرة، أو تحمل قضية، أو تكشف عن عاطفة؛ لذا شكّلت منبعاً نقياً يهل منه الشعراء في التعبير عن ذواتهم، وتعميق تجربتهم الشعريّة من خلال استحضار بعضها في شعرهم.

ومن يقرأ الشعر العربي يجد الشعراء العرب قديماً قد التفتوا إلى هذه الفنية المهمة، فقاموا بتوظيفها في شعرهم بقصدية، حاملة أهدافهم لمتلقيهم، إذ إن العملية الإبداعية برمتها ليست عملاً بريئاً، وإنما هي عملية قصدية، مرتبطة بأهداف المبدع وأفكاره التي يحملها من خلال نصه إلى متلقيه.

أما حديثاً فقد وظف الشعراء المعاصرون هذه التقنية في شعرهم توظيفا أوسع؛ لما يتيح لهم الشعر الحر من حرية في تخطي حدود الوزن والقافية التي تميز الشعر العمودي، إذ وجدوا في كثير من الشخصيات على اختلاف مشاربها ضالتهم، فاستحضروها في شعرهم معبرين من خلالها عن تجاربهم الشعرية، مضيفين أبعاداً دلالية لها من وحي واقعهم العربي المفعم بالآلام والأحزان. وسيقوم بحثي هذا بتتبع هذه الظاهرة في شعر الشريف الرضي (٣٥٩-٤٠٦ هـ)، أحد شعراء العصر العباسي، إذ يظهر في شعره قدرة على استحضار الشخصية، بروافدها المختلفة، كما يحمل هذا الاستحضار دلالات متعددة، ترتبط بالذات أحياناً، وبالآخر (المتلقي) أحياناً آخر.

المبحث الأول: الشخصية التاريخية

تتسم الشخصيات التاريخية بشكل عام بالسمات الحميدة كالقوة والمنعة والبأس، والأعمال البطولية المختلفة، ومنها ما يتصف بصفات أخلاقية لافتة للنظر فتصبح بذلك مثلاً يحتذى به، ويصبح سجلها حافلاً بالقصص والأحداث، مما يدفع الأدباء لا سيما الشعراء منهم لتوظيفها في التعبير عن جانب ما، كانت فيه هذه الشخصية مثلاً يحتذى بها فيه. ويرى علي عشري زايد أن الأحداث التاريخية، والشخصيات التاريخية ليست مجرد ظواهر عابرة تنتهي بانتهاء وجودها على أرض الواقع، وإنما تبقى لها دلالتها الشمولية الباقية، والقابلة للتجديد على امتداد الزمان، وبأنماط وصيغ مختلفة (زايد، ١٩٩٧).

وللتأثير في المتلقي، وإخراج الفكرة في أبهى حللها لا بد أن يكون الشاعر قادراً من الناحية الفنية على التعامل مع هذه الشخصيات التاريخية، وإلا لم تضيف شيئاً جديداً للنص، إذ إن "هناك محاذير تجاه استخدام الشخصية التراثية؛ لتكون معادلاً فنياً لموقف معاصر، فإذا لم تكن هذه الشخصية تتميز تاريخياً عن سواها بما يجعلها وحدها قادرة فنياً للتعبير عن قضية معاصرة. كذلك إذا اكتفى الشاعر بتعليق همومه، وقضاياها في عنق الشخصية التراثية؛ فإن ذلك يمثل خطورة تترصص بالأداء، وتذهب بقيمته." (عيد، ٢٠٠٣).

ويختار الشاعر من شخصيات التاريخ ما يوافق طبيعة الأفكار والقضايا والهموم التي يريد أن ينقلها إلى المتلقي (زايد، ١٩٩٧). وباستقراء الشخصيات التاريخية التي استحضرها الشريف الرضي منتقياً إيها بعناية فائقة، نجدها تتوزع على شخصيات عاشت قبل الإسلام أي في العصر الجاهلي، وأخرى إسلامية كان لها أثر في محيطها الاجتماعي، أو ارتبطت بها صفة ما، أو كان لها مكانة متميزة في مجتمعها، ولها دلالات خاصة متعلقة بذات الشاعر ونفسيته.

ولما كان هم الشريف الرضي في التعبير عن نسبه الشريف، وحسبه الكريم الذي يبلغه مراده في الحياة، وهو الوصول إلى الإمارة أو الخلافة، فقد استحضر شخصيات عاشت في العصر الجاهلي يعتزّ العربي بالانتساب إليها من مثل: نزار، وربيعه، وعدنان، وتغلب، وكليب، ومضر بن نزار، ومن ذلك قوله:

"وَأَيْنَ يَجِيدُ عَنْ مُضَرَ عَدْدُ إِذَا زَفَرَتْ وَعَبَّتْ لَهَا الْعَبَابُ"^(١)

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١/١٨٩)

"أَكْفُ بَنِي عَدْنَانَ تَسْتَمَطِرُ الظُّبَى وَتَأْنِفُ مِنْ جُودِ الْعَمَائِمِ بِالْعَهْدِ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١/٣٧٨)

(المتقارب)

وقوله:

"بَنِي عَمِنَا أَيْنَ قَحَطًا نَكْمُ إِذَا عَبَّ بَحْرُ نَزَارٍ وَمَدَا"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١/٣٩٤)

وثمة مواقع أخرى كثيرة يلجأ فيها الشاعر إلى مثل هذا الاستحضار. (ينظر الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١/١٧٧، ١/٤١٣، ٢/٣٣٦). ويظهر من هذا الاستحضار تعبير الشاعر عن جملة من الصفات المميزة التي تتسم بها هذه الشخصيات، وعن النجائب الكريمة التي يعتزّ بها الشعراء أو يرصدونها في ممدوحهم.

(١) عب: ارتفع موجة واصطخب (ينظر المعجم الوسيط: مادة عب).

ولجأ الشريف الرضي إلى التاريخ ليأخذ منه العبرة والعظة، ويسري فيه النفس ويصبرها على فقده خاله، إذ إن الأرقام الماضية قد بادت وذهبت، ويتجلى ذلك في قوله:

(الطويل)
 "ألم يأن للناس هبة نائم رأى سيرة الأيام أو جد لا عيب
 حدث بعصاها آل ساسان والتوت يداها بال المنذرين الأشاهب
 وحلت على أطلال عاد وجمير سناكها حل الجياد اللواعب
 نزلن قباب المنذر بن محرق وأندية الشم الطوال بمارب
 نبا ببي العنقاء ناب وقفقت عماد بني الرتان إحدى الشواعب
 فقادتهم قود الأيايق في البرى وزمهم زم القروم المصاعب (٢)"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٢١١/١)

فها هم ملوك الفرس آل ساسان، والمناذرة، وبنو العنقاء، وبنو الزيان، وغيرهم من ملوك العرب وسادتها قد غادروا الحياة، وخال الشريف الرضي قد غادر مثلهم، وفي ذلك تسرية للنفس وتصبير لها على هذا المصاب؛ لذلك يظهر بعد ذلك تسليمه للقضاء في قوله:

(الطويل)
 "تقطعت الأسباب بيبي وبينته فلم تبق إلا علة للمناسب"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٢١٢/١)

وبالتظر في الأبيات السابقة هناك قصديّة واضحة حملت الشريف الرضي على استحضار هؤلاء الأرقام من الملوك والسادة، إذ إنّه بذلك يرفع من مكانة خاله؛ التي ترتقي إلى مصاف هؤلاء الملوك، وبهذا يكون قد جمع بين دالتين: الأولى هي التعبير عن المكانة العالية التي يرق لها خاله الذي ينتسب إليه الشاعر من جهة أمه، والثانية وهي الاستسلام للقضاء والقدر، وتسرية النفس وتصبيرها على هذا المصاب الجلل.

وكانت شخصيّة هاشم بن عبد مناف من أكثر الشخصيات التاريخيّة حضوراً في شعر الشريف الرضي، وذلك للتعبير عن طيب النسب، وشرف الأصل والحسب، ومناقب الكرم والجود، وغيرها من الصفات الحسنة التي اتّسمت بها هذه الشخصيّة. وظهرت هذه الشخصيّة في موضوعي المدح والفخر بشكل لافت للنظر. ففي مدحه والده يربطه بأجد فرع، وأنجب عود، في قوله:

(الطويل)
 "فقى صحب البأس الندى في بنانه بفيض العطايا والدماء السوارب
 لأمجد فرع في عرّانين هاشم وأنجب عود من لؤي بن غالب
 لهم سرّة المجد التليد وسره ومخض المعالي فيهم والمناقب (٣)"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١٤٦/١-١٤٧)

ويتكرّر هذا الربط في مواطن عديدة في مدح والده. (ينظر: الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٣٥٣/١، ٣٦٧/١)
 أما في فخره بنفسه فيستحضر شخصيّة هاشم بن عبد مناف في غير موطن، ومن ذلك قوله:

(١) الشم: جمع أشم وهو الشامخ بأفنه، الشواغب: جمع شاغب، وهو الأمر المزعج، زمت: شدّتهم، القروم جمع قرم، وهو الفحل: (ينظر المعجم الوسيط: مادة شمم، شغب، زم، قرم).

(٢) سوارب: السائلة، عرّانين: جمع عرّين: الأنف، التليد: القديم، (ينظر المعجم الوسيط: مادة سرب، وعرن، وتلد).

"فَمَنْ أَجْدَادِي إِذَا نَسَبْتَنِي أُمُّ مَنْ كَأَخِيائِي أَوْ قَبَائِلِي
مِنْ هَاشِمٍ أَكْرَمَ مَنْ حَجَّ وَمَنْ جَلَّ بَيْتَ اللَّهِ بِالْوَصَائِلِ
قَوْمٌ لِأَيْدِيهِمْ عَلَى كُلِّ يَدٍ فَضْلٌ سِجَالٍ مِنْ رَدَى وَنَائِلٍ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١٥٠/٢)

وفي مدحه للطائع لا يفوته استحضار هذه الشخصية اعتزازاً بالنسب الطاهر الشريف، ويظهر ذلك في قوله: (المتقارب)

"يَعُدُّ لِعَلْيَانِهِ هَاشِمًا إِذَا مَا الْأَذْلَاءَ عَدُّوا هِشَامًا
مَنْ الرَّاكِرِينَ الرَّمَاحِ الطَّوَا لَ وَالرَّافِعِينَ العِمَادَ العِظَامَا
لَهُمْ نَسَبٌ كَاشْتَبَاكَ النُّجُومِ تَرَى لِمَتَنَاقِبٍ فِيهِ ازْدَحَامًا"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٢٧١/٢)

وحق للشريف الرضي أن يفخر ويزهو بالنسب الشريف؛ فوالده أبو أحمد الحسين بن موسى الكاظم، ينتهي نسبه بعلي ابن أبي طالب، وكان نقيباً للطالبيين، وأميراً للحج، وذا مكانة عالية في القوم، ووجها من وجوه التوفيق والإصلاح، وأمّه فاطمة بنت الحسين الناصر، التي يتصل نسبها بعلي بن أبي طالب أيضاً، ولعبت دوراً رائعاً في رعاية أبنائها، وتعليمهم بعد وفاة زوجها أبي أحمد (عمران، ٢٠٠٠).

ويستحضر الشاعر في رثائه حرباً بن سعيد الحمداني - وهو أخو أبي فراس الحمداني - كليبا الذي كان رمزاً للقوة والأنفة، إذ أصر أخوه الملقب بالزير سالم على الأخذ بالثأر اللامتناهي له لمكانته المرموقة عنده تلك التي لا تدانها منزلة بين العرب، وجاء هذا الاستحضار في قول الشريف:

"وَعَادَرْتُمْ أَشْلَاءَ بَكْرٍ مُقِيمَةً عَلَى العَارِ لَا تَحْتَى عَلَيْهِ النَّبَائِثُ
وَقَدْ كَانَ دَيْنٌ فِي كُلَيْبٍ وَفِي بِهِ غَرِيمٌ مَطُولٌ بِالدُّيُونِ مُمَاعِثٌ^(٤)"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٢٩٣/١)

ولعل استحضار شخصية كليب هنا يرمز إلى الإصرار على الأخذ بالثأر، وإلى القوة والشجاعة التي يمتاز بها بنو تغلب (قبيلة كليب)، تلك القبيلة التي ينتهي إليها حرب بن سعيد الحمداني.

وارتبطت بعض الشخصيات التاريخية بفكرة ما أو قصة أو مثل، فيها هو عرقوب يضرب به المثل في إخلافه الوعد في قول العرب: "أخلف من عرقوب" (الميداني، ١٩٨٨)، إذ يوظف الشريف الرضي ذلك في التعبير عن إخلاف الدهر له وعوده حيث وعد وعودا كثيرة غير أن الدهر قد أخلفها؛ فاستحضر شخصية عرقوب للتعبير عن هذا المعنى في قوله:

"وَعَدْتِ يَا دَهْرُ شَيْئًا بَتُّ أَرْقُبُهُ وَمَا أَرَى مِنْكَ إِلَّا وَعَدَ عَرْقُوبٍ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١١٢/١)

فالشاعر قد تلقى الوعد الكثير من الخلفاء والسلاطين، لكنّه لم يحصل على شيء منها، فوجد في عرقوب ما يدلّل بعمق على التعبير عن فكرته.

(٤) النبائت: الأثرية، مماعث: مخاصم، (ينظر المعجم الوسيط: نبت، مغث).

أما الشخصيات الإسلامية التي استحضرها الشريف الرضي فقد تعددت، وحملت كل واحدة منها فكرة أو ارتبطت بموقف ما، أو كان لها سمة شخصية تميزها يهدف الشاعر تجليتها، والتعبير عنها. فهي شخصية حمزة بن عبد المطلب ارتبطت بالقوة والشجاعة؛ لذلك كانت ملهمة للشريف لاستحضارها في التعبير عن جلده وشجاعته في مواجهة الخطوب في قوله: (المنتقرب)

"بِحَمَزَةٍ أُمْسَيْتُ أَلْقَى الْخُطُوبَ وَأَزْمِي الْعُدُوَّ وَأَرْقِي الْيَفَاعَا"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١/٦٢٢)

ففي لقاء الخطوب ورمي العدو يحتاج المرء إلى الشجاعة والقوة، وهما صفتان ارتبطتا بحمزة بن عبد المطلب؛ لذا استحضره الشاعر في هذا الموقف.

ونسب الشريف الرضي ألقى بظلاله على نفسيته فجعلها عزيزة أبية، ترفض الذل والخنوع، وتأبى الضيم والهوان (الحلي، ١٩٦٨)؛ لذا يمتح في التاريخ بحثاً عن شخصيات تنماز بهذه الصفات، فينشئ في لوحة شعرية معبرة عدداً منها، وأبرز هذه الشخصيات ابن الأشعث أحد زعماء الخوارج، الذي واجه الحجاج في دير الجماجم، ورفض الاستسلام والخضوع، ويزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وقد ثار على بني أمية رافضاً الخنوع والذل، ومصعب بن الزبير أحد الثائرين على بني أمية الذي منح الأمان فرفضه. وقد شكّلت هذه الشخصيات معادلاً موضوعياً للأنفة والعزة ورفض الذل، فاستحضرها الشاعر في قوله: (الطويل)

"فَمِنْ قَبْلِ مَا اخْتَارَ ابْنُ الْأَشْعَثِ عَيْشَهُ عَلَى شَرَفِ بَاقِي رَفِيعِ الدَّعَائِمِ

فَطَارَ ذَمِيمًا قَدْ تَقَلَّدَ عَارَهَا بِشَرِّ جَنَاحِ يَوْمِ دَبْرِ الْجَمَاجِمِ

وَهَذَا يَزِيدُ بُنُ الْمُهْلَبِ نَافَرْتُ بِهِ الذَّلَّ أَعْرَاقُ الْجُدُودِ الْأَكَارِمِ

وَقَالَ وَقَدْ عَنَّ الْفِرَارَ أَوْ الرَّدَى لَحَى اللَّهُ أَخْرَى ذِكْرَهُ فِي الْمَوَاسِمِ

وَقَدْ حَلَقَتْ حَوْفَ الْهَوَانِ بِمُصْعَبٍ قَوَادِمُ آبَاءِ كَرِيمِ الْمَقَاوِمِ

عَلَى حِينِ أَعْطَوْهُ الْأَمَانَ فَعَافَهُ وَخَيْرَ فَاخْتَارَ الرَّدَى غَيْرَ نَادِمِ^(٥)"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٢/٣٧٠)

وعلى الرغم من كون الشاعر شيعي المذهب، يرى الخلافة في نسل علي، ويعتقد بسلب بني العباس لها من ذريته، إلا أنه استحضر شخصيات عباسية، تنحصر في بعض الخلفاء، فهي هو في مدحه للقادر والطائع يستحضر شخصية العباس بن عبد المطلب في التعبير عن كريم النسب، وسمات الجود والكرم، حيث يقول في القادر: (الكامل)

"وَأَبُوكُمْ الْعَبَّاسُ مَا اسْتَسْقَى بِهِ بَعْدَ الْقُنُوطِ قَبَائِلِ إِلَّا سُقُوا"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٢/٣٧٠)

(الكامل)

ويقول في الطائع:

"نَسَبٌ إِلَيْكَ تَجَادَبَتْ أَشْيَاخُهُ طَوَّلاً مِنْ الْعَبَّاسِ غَيْرُ مُوصِلٍ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٢/١٠١)

(٥) نافرت: خاصمت، الأعراق: الأصول، عاف: رفض، (ينظر المعجم الوسيط: مادة: نفر، عرق، عوف).

ويعبر الشاعر عن إعجابه بشخصية الطائع متخذاً من الخلفاء السابقين أمثلة للتدليل على جملة من المناقب السامية التي يمتاز بها هذا الخليفة، فما هو يشبه الرشيد في سداد الرأي، والمنصور في الهيبة، والأمين في الحسن، والمتوكل في النعمة، حيث يقول: (الكامل)

"رَأَى الرَّشِيدَ وَهَيْبَةً الْمُنْصُورَ فِي حُسْنِ الْأَمِينِ وَنِعْمَةَ الْمُتَوَكَّلِ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١٠١/٢)

وفي أحداث التاريخ المرتبطة بشخصيات شهيرة عبر، وعظات، ودلالات؛ لذا لجأ الشاعر إلى التاريخ مستحضراً بعضها لأخذ العبرة والعظة، فهذا الخليفة العباسي المأمون يدل حكم أخيه الأمين، وذلك المتوكل يسمي صريعاً بابنه، ويظهر ذلك في قوله: (الكامل)

"هَذَا الْأَمِينُ أَذَالَ مِنْهُ شَقِيْقَهُ وَمَضَى عَقِيْرًا بِابْنِهِ الْمُتَوَكَّلِ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١٣٨/٢)

ويستحضر الشاعر شخصية سيف الدولة الحمداني في التعبير عن حسن تربيته ابنته، وذلك في قول الشريف الرضي في رثاء ابنة سيف الدولة: (الوافر)

"السَّيْفِ الدَّوْلَةَ الْعَرَبِيَّ فِيهَا صَنِيْعَ الْقَيْنِ قَامَ عَلَى النَّصَالِ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١٨٥/٢)

فالشاعر يرى في شخصية سيف الدولة العربي مثالا يقتدى في التربية إذ ربى ابنته تربية قويمه، تماما كما يفعل الحداد في تقويم السيف، وفي هذه الصورة دلالات عميقة. وهكذا بدت شخصيات الشريف التاريخية، مثالا لصفة يحتذى بها، أو تعبيرا عن معنى عميق، أو فكرة ينقلها الشاعر بفتية إلى المتلقي، أو دليلا أو برهانا للتأكيد على معنى أو عاطفة يباح بها.

المبحث الثاني: الشخصية الدينية

تشكل الشخصية الدينية مصدراً مهماً من المصادر التي يلجأ إليها الشاعر لاستحضارها؛ وذلك لما لها من تأثير قوي وفعال في القارئ المفترض، فالدين له سلطة معنوية مؤثرة في النفوس، فكيف إذا كان الشاعر واحداً ممن لهم مكانة دينية في انتمائه إلى المذهب الشيعي الذي كان منتشراً بشكل واسع في القرنين الرابع والخامس الهجريين اللذين عاش فيهما الشاعر حياته. ولعل من أبرز الشخصيات الدينية المستحضرة شخصية الأنبياء، إذ يرى علي عشرين زائداً أن الشعراء من قديم قد أحسوا بأن هناك روابط وثيقة تربط بين تجربتهم وتجربة الأنبياء، ولعل هذا السبب من الأسباب المهمة التي دفعتهم لاستحضار هذه الشخصيات. (زايد، ١٩٩٧)

وعندما يصير الحديث عن شاعر شيعي له مكانته، وهو الشريف الرضي كما أجمع كل دارسيه (الجلو، ١٩٨٦)، فإنه من الأهمية بمكان أن تكون الشخصية الدينية حاضرة في شعره بشكل جلي، وقد شكّلت شخصية الرسول محمد عليه السلام أبرز الشخصيات الدينية، لما يمثله من مكانة دينية، ونسب شريف مميز، وهذا النسب مادة خصبة للشريف الرضي، حيث كان من أكثر الشعراء افتخاراً به، حيث يعدّ الشريف بيت النبوة الأصل والجذر في نسبه، وما أسماه من نسب وأعره من حسب! وقد ربط الشريف نفسه في حديثه عن ذاته، واعتزازه بها بهذا النسب النقي في قوله:

"مَا عُدُّرُ مَنْ ضَرَبَتْ أَعْرَافُهُ حَتَّى بَلَغْنَ إِلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ"

أَنْ لَا يَمُدَّ إِلَى الْمَكَارِمِ بَاعَهُ وَيَنَالَ مُنْقَطِعَ الْعُلَى وَالسُّؤُدِ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٤٠٢/١)

فهذا النسب الشريف الذي يربطه بمحمد عليه السلام مدعاة له ليمدّ باعه إلى المكارم، ويصل ما لا يصله غيره من العلياء والسؤدد. وينطلق الشريف من هذا النسب للمطالبة بأن يردّ إليه تراثه، وهنا يقصد الخلافة التي هي حق علوي من وجهة نظره، في قوله: (الكامل)

"رُدُّوا تَرَاثَ مُحَمَّدٍ رُدُّوا لَيْسَ الْقَضِيبُ لَكُمْ وَلَا الْبُرْدُ هَلْ عَرَفْتُ فِيكُمْ كَفَاطِمَةَ أُمِّ هَلْ لَكُمْ كَمُحَمَّدٍ جَدُّ(١)"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٤٤٦/١)

ويكرّر الشريف الفخر بهذا النسب في غير موطن، من مثل قوله:

"هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ كَرُمْتُ مَعَارِسُهُ وَطَابَ الْمَوْلِدُ أَوْ مَا كَفَاكَ بَانَ أُمَّكَ فَاطِمُ وَأَبُوكَ حَيْدَرَةٌ وَجَدُّكَ أَحْمَدُ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٤٤٧/١)

ولمّا مدح الشريف الخليفة الفاطمي في مصر، وجد الالتقاء بالنسب الشريف سمة مميزة تربطه بالخليفة، ويتجلى فخره ذلك في قوله:

"فَجَدُّ نَبِيِّ نُمُّ جَدُّ خَلِيفَةِ فَمَا بَعْدَ جَدَيْنَا عَلِيٌّ وَأَحْمَدُ وَمَا افْتَخَرْتُ بَعْدَ النَّبِيِّ بغيره يَدُّ صَفَقَتِ يَوْمَ الْبَيْعِ عَلَى يَدِ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٤٠٦/١)

وفي هذا الاستحضار فخر مزدوج، للشريف الرضي من جهة، وللممدوح من جهة أخرى، إذ يلتقيان معا في نسب كريم. ويظهر إعجاب الشريف بشخصية النبي محمد عليه السلام، من خلال استحضاره شخصيته في التعبير عن جلال الطائع، وبهائه وعظمته، وفي ذلك مبالغة في مدح الخليفة، ذلك الخليفة الذي أحبه الشاعر من بين الخلفاء؛ لما أسبغ عليه من ألقاب، وما منحه إياه من مهام دينية عالية، وأوصلته إلى المكانة العالية التي حلّ فيها أبوه (المطرودي، ١٩٨٤)، حيث يقول الشريف في الطائع: (الكامل)

"لَمَّا رَأَى النَّبِيَّ مُحَمَّدًا فِي بُرْدَةِ الْإِجْلَالِ وَالْإِعْظَامِ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٢٨٤/٢)

وكما يبدو فإن الاستحضار هنا فيه تعظيم وإجلال لشخص الخليفة الطائع إذ يرى في طلعه محمدًا -عليه السلام-. ولم يقف الشريف عند هذا الحدّ في التعبير عن إعجابه بالخليفة، بل رأى أنه أحقّ الناس بوراثته النبي محمد عليه السلام في قوله: (الكامل)

"لَيْتَهُ نُمُّ لَكَ الْمَحَلُّ الْأَعْظَمُ وَإِلَيْكَ يَنْتَسِبُ الْعَلَاءُ الْأَقْدَمُ وَلَكَ التُّرَاثُ مِنَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَالْبَيْتُ وَالْحَجْرُ الْعَظِيمُ وَرَمَزٌ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٢٨٨/٢)

يظهر من البيتين السابقين أهمية إضفاء المكانة الدينية على الطائع، تلك التي اكتسبها من وراثته محمدًا -عليه السلام-. ولمّا لشخصية النبي محمد عليه السلام من أثر على الشريف الرضي، فقد شكّلت ملاذا له يستغيث به، بأنّا إليه حزنه لما حلّ بالحسين -رضي الله عنه- في قوله:

(الرمل)

(١) عرقت: من العرق النسب، (ينظر المعجم الوسيط: مادة عرق).

"يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ عَايَنْتَهُمْ وَهُمْ بَيْنَ قَتْلِي وَسَبَا"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٩٤/١)

(الرمل)

وتظهر هذه الاستغاثة في قوله:

"يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا فَاطِمَةَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُرْتَضَى

كَيْفَ لَمْ يَسْتَعْجِلِ اللَّهُ لَهُمْ بِانْقِلَابِ الْأَرْضِ أَوْ رَجْمِ السَّمَاءِ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٩٥/١)

وكان للانتماء المذهبي للشاعر أثر في انتقاء الشخصيات؛ فقد شكّلت شخصيات لها مكانة دينية في المذهب الشيعي مصدرا مهماً من مصادر الاستحضار، ومن بين هذه الشخصيات علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجاءت هذه الشخصية في موطن افتخار الشاعر بالنسب الشريف، وربطها في موطن عدّة بشخصية النبي محمد عليه السلام، أو بابنه الحسين، ومن ذلك قوله: (الوافر)

"وَأَعَزُّهُمْ إِذَا سَأَلُوا عَطَاءَ وَأَوْحَاهُمْ إِذَا غَضِبُوا ضِرَابًا

بَنُو عَمِّ النَّبِيِّ وَأَقْرَبُوهُ وَالصَّقْفُ بِهِ عِرْقًا لُبَابًا

عَلِيٌّ بِيَدِ الْحُسَيْنِ ذُؤَابَتَاهَا وَقَرَعَاهَا اللَّذَا كَثُرًا وَطَابًا"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١٥٢/١)

وتظهر في الأبيات السابقة ثلاثية تكررت في غير موطن في ديوانه، وهي الرّبط بين الرسول محمد عليه السلام وعلي بن أبي طالب، والحسين بن علي رضي الله عنهما.

وفي معرض رثاء الشريف لجده الحسين يستحضر الأئمة لدى الشيعة في قوله:

(الرمل)

"مَغَشَّرُ مَنَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ وَالْكَاشِفُ الْكَرْبُ إِذَا الْكَرْبُ عَرَا

صِهْرُهُ الْبَادِلُ عَنْهُ نَفْسَهُ وَحُسَامُ اللَّهِ فِي يَوْمِ الْوَعَى

أَوْلُ النَّاسِ إِلَى الدَّاعِي الَّذِي لَمْ يُقَدِّمِ غَيْرُهُ لَمَّا دَعَا

تُمْ سِبْطَاهُ الشَّهِيدَانِ فَذَا يُحْسَا السُّمُّ وَهَذَا بِالطَّيِّ

وَعَلِيٍّ وَابْنُهُ الْبَاقِرُ وَالصَّادِقُ الْقَوْلُ وَمُوسَى وَالرِّضَا

وَعَلِيٍّ وَأَبُوهُ وَابْنُهُ وَالَّذِي يَنْتَظِرُ الْقَوْمَ غَدًا"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٩٦/١)

ففي المقطع السابق من قصيدته في رثاء الحسين يذكر الأئمة الاثني عشر، ويلاحظ أنّ الشاعر ركّز على علي رضي الله عنه وبين مناقبه؛ فهو صهر الرسول عليه السلام، وأوّل من لبّى دعاء الإسلام، وفدى الرسول -عليه السلام- بنفسه يوم الهجرة. ومن الملاحظ التصاق هذا الاستحضار بما يفتخر به الشريف من النسب الكريم، وفيه افتخار واضح بالمذهب العقدي الذي ينتهي إليه.

ولعلّ جلّ المواضع التي استحضر فيها الشاعر شخصية الرسول -عليه السلام- كانت ترتبط بنفسية الشاعر المتمثلة بالزّهو بالنسب الشريف الذي يوصله إلى المنبع النقي الكريم، ويمنحه فيما يعتقد حقاً في الخلافة التي سلبت منهم حسب ما كان يعتقد كما بدا في شعره.

أما حديثاً فلجأ الشعراء إلى استحضار شخصية الرسول الكريم -عليه السلام- مستوحين من سيرته دلالات أخرى تتعلّق بكونه رمزاً للإنسان العربي، سواء في انتصاره أو عذابه (زايد، ١٩٩٧).

ولم يكن الرسول محمد -عليه السلام- وحده حاضراً في شعر الشريف، فقد استحضر أنبياء آخرين من مثل شخصية النبي يعقوب -عليه السلام- الذي عرف بصبره على فقده يوسف -عليه السلام- فترة من الزمن، وذلك في معرض تعزيته بهاء الدولة عن ولده أبي المنصور، إذ يراه أهلاً للصبر والسلوان على الرغم من شدة الأذى التي أصابته في فقده ولده، وهو في ذلك يشبه يعقوب -عليه السلام- بتأسيه وحزنه على فقد فلذة كبده يوسف -عليه السلام- في قوله:

"مَهْضاً بِهَا صَابِراً فَأَنْتَ لَهَا وَالثَّقْلُ لَا يُعْجِزُ الْمُصَاعِبِ
فَقَدْ رَأَيْتَ الْأُمَى وَإِنْ قَدِمْتُ عَنْ يَوْسُفَ كَيْفَ صَبْرُ يَعْقُوبِ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١٩٨/١)

(البيسط)

ويستحضر شخصية يعقوب عليه السلام في موطن آخر، في قوله:

"وَحَاجَةٌ أَنْقَاضُهَا وَتَمَطُّنِي كَأَنَّهَا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبِ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١١٢/١)

فالشاعر إذ يغدّ الخطوات إلى ممدوحه، أملاً في تحقيق حاجة في نفسه، لا يريد أن يكشفها، فيستحضر النص القرآني مرتبطاً باسم النبي يعقوب -عليه السلام- تعبيراً عن إخفاء الحاجة، وإضمارها لهدف حبيس في النفس. ومن الأنبياء الذين استحضرهم الشاعر داود -عليه السلام-، وذلك في مدحه الصحاح بن عبّاد في قوله:

"إِنْ أَهْدِي أَشْعَارِي إِلَيْكَ فَإِنَّهَا كَالسَّرْدِ أَعْرِضْهُ عَلَى دَاوُدَ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٣٥٠/١)

وهذا يكون الشاعر قد زاد من مكانة ممدوحه، ورفع به أن قرّنه بالنبي داود -عليه السلام- وهذه الشعريّة الفائقة في بيت الشاعر تأتي من حسن توظيفه الشخصيات (الغراوي، ٢٠١٦). وثمة هدف آخر في نظري حقّقه الشاعر من هذا الاستحضار، وهو التعبير عن مكانة شعره، وقوة سبكه، فهو كالسرد الذي يهدى، وأظنّ أنّ شاعراً كالشريف الرضي لم يفتحه هذا المقصد بل ربّما كان هذا هو الهدف الأول من استحضار شخصية داود -عليه السلام-. وبهذا يكون الشاعر قد جمع مقصدين معاً: أحدهما يرتبط به كونه مبدعاً متميزاً بشعر قويّ السبك، والآخر يرتبط بممدوحه المتلقي الناقد والشاعر هنا، من خلال شيفرة النص التي اعتمدت استحضار هذه الشخصية.

المبحث الثالث: الشخصية الأدبية

ارتبطت جلّ الشخصيات الأدبية المستحضرة بظاهرة أدبية ما، أو بأسلوب مبرّها عن غيرها، أو بصفة أو موقف جعلها تشتهر عبر الزمن؛ ممّا جعلها مجالاً خصباً، وملهماً للشعراء قديماً وحديثاً، ويرى عليّ عشريّ زايد أنّ شخصيات الشعراء من بين أكثر الشخصيات الأدبية الأليق بنفوس الشعراء ووجدانهم؛ لأنّها عانت التجربة، ومارست التعبير عنها؛ لذلك كان لها قدرة خاصّة على التعبير عن تجربة الشاعر في كلّ عصر. (زايد، ١٩٩٧)

أما الشريف الرضي فقد استحضر عدداً من الشعراء في إذكاء تجربته الشعريّة، أو في التعبير عن فكرة يبغي توصيلها، أو التّدليل عليها، أو في البوح بمكنون عاطفته التي تعتمل قلبه، وتنوّع هؤلاء الشعراء بين شاعر جاهليّ عاش قبل الإسلام، وآخر إسلامي.

يستحضر الشريف الرضي شخصية زهير بن أبي سلمي في تعبيره عن مكانته الشعريّة، من خلال تجاوزه شعر زهير، وذلك في معرض مدح الشريف الرضي والده إذ يرى أنّ شعره فيه قد برّ به زهيراً، وهو في الوقت نفسه يرى أنّ مجد والده قد تجاوز مجد هرم بن سنان، ويظهر ذلك في قوله:

(المنسرح)

"إِلَى أَبِي أَحْمَدَ صَدَعْتُ بِهَا قَلْبَ الدُّحَى وَالضَّمِيرُ يَضْطَرِمُّ

بَرَّ زُهَيْرًا شِعْرِي وَهَا أَنَا ذَا لَمْ أَرْضَ فِي الْمَجْدِ أَنَّهُ هَرَمٌ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٣٠٥/٢)

ففي البيتين السابقين يظهر الشاعر معجبا بشعره، وبوالده، فشعره قد برّ زهيراً، ومجد والده فاق هرما بن سنان. ولكنّه في موطن آخر يرى نفسه زهيراً، أملاً بوجود من يشبه هرما يجزل له العطاء، وذلك في قوله: (البيسيط)

"أَنَا زُهَيْرٌ فَمَنْ لِي فِي زَمَانِكَ ذَا بِيَعْضِي مَا افْتَرَقَتْ عَنْهُ يَدَا هَرَمٍ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٣٢٩/٢)

وفي كلا الموطنين يبدي الشاعر إعجابه بشعره، ومكانته، وهو في الوقت نفسه يربط بين زهير بن أبي سلمي، وهرم بن سنان الذي عرف بجوده وكرمه عندما تكفل بدفع ديوات القتلى لوقف حرب داحس والغبراء؛ فاستحق بذلك المدح من قبل زهير في معلقته الشهيرة، إذ يقول زهير فيه: (الطويل)

"يَمِينًا لِنِعْمَ السَّيْدَانِ وَجِدْتُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَجِيلٍ وَمُبْرَمٍ"

(زهير، ١٩٨٨، ص ١٠٤)

ويقول فيه في قصيدة أخرى معبّراً عن جوده وكرمه، وخلقه الكريم:

"وَهُوَ غَيْثٌ لَنَا فِي كُلِّ عَامٍ يَلُودُ بِهِ الْمَخُولُ وَالْعَدِيمُ

وَعَوْدٌ قَوْمُهُ هَرَمٌ عَلَيْهِ وَمِنْ عَادَاتِهِ الْخُلُقُ الْكَرِيمُ"

(زهير، ١٩٨٨، ص ١١٩)

وفي معرض رثاء الشريف الرضي لأحد أصدقائه استحضر الشاعر السّمؤال في التعبير عن أخذ العبرة والعظة من الموت بهدف التّصبر والسّلوان؛ فهذا الموت لا يبقى على أحد مهما كانت مكانته، فقد أتى على الشاعر السّمؤال وعلى آل محرق، ودفعهما إلى أن يغادرا قصورهما، وذلك في قوله: (الكامل)

"وَأَبْقَى عَلَى دَارِ السَّمْوَالِ بَرْكُهُ وَقَادَ إِلَى وَرْدِ الْمُنُونِ مُحْرَقًا

فَقَارِقَ هَذَا الْأَبْلَقَ الْقَرْدَ بَعْتَهُ وَوَدَعَ ذَا بَعْدَ النَّعِيمِ الْخَوَزْنَقًا"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٦٥/٢)

وفي السياق ذاته يعبر الشريف الرضي عن قوته، وعدم خوفه من الموت؛ وذلك من خلال استحضاره شخصية لبيد بن ربيعة العامري الذي فجع بأخيه أربد، ومالك بن نويرة الذي فجع بأخيه متمم في قوله: (الطويل)

"سَأَقْدِمُ لَا مُسْتَعْظِمًا مَا لَقِيْتُهُ تَوَسَّعَ لِي فِي الرِّدْعِ أَوْ ضَاقَ مَقْدَمِي

فَقَدَّ فَجَّعَ الْمَاضِي لَبِيدًا بِأَرْبَدٍ وَعُرِّيَ مِثْلِي مَالِكٌ مِنْ مُتَمِّمٍ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٣٣٩/٢)

يظهر الشاعر قوياً لا يحسب لما لقيه أيّ حساب؛ فالموت أت لا محالة، فقد فجع هذا الموت قبله لبيداً بأخيه أربد، ومالكا بأخيه متمم؛ لذا لن يستعظم ما يلقيه من خطوب.

وعندما تحدّث الشريف الرضي عن طموحه في الوصول إلى المعالي والسير في طرقها، والوصول إلى العزّ مهما علت ناراها؛ فإنّه يستحضر شخصيّة الشّاعر عدي بن الرقاع العاملي الذي عرف بأنّه أفضل الشعراء وصفا للمطيّة؛ فالشّاعر إذ يرحل ويقاوم من أجل المعالي، وربما يحتاج إلى البعد من أجلها؛ لذا فهو بأمر الحاجة إلى مطيّة قويّة يمتطها ليصل إلى أربه ومبتغاه؛ لذا استحضر شخصيّة عديّ، وفي ذلك يقول:

(الوافر)

"وَلَسْتُ أَضِلُّ فِي طُرُقِ الْمَعَالِي وَنَارُ الْعِزِّ عَالِيَةُ الشُّعَاعِ
وَيُعْجِبُنِي الْبِعَادُ كَأَنَّ قَلْبِي يُحَدِّثُ عَنْ عَدِيِّ بْنِ الرَّقَاعِ"

(الشّريف الرضي، ١٩٩٩، ٦١٦/١)

وتتألّق قصيدة الشّريف الرضي تألّق الرّوض التّضبير، لتفرح بمبدعها فرح الخميّلة بالغدير، فتبدو أنيقة من مبدع كبير، وفي هذا المقام يربط تميّز قصيدته بشاعرين أمويين مشهورين بحسن شعرهم، وقدرتهم على سبكه هما الفرزدق وجريّر، ويظهر ذلك في قوله:

(مجزوء الكامل)

"وَقَصِيدَةٍ عَدْرَاءَ مِثْ لِي تَأَلَّقِي الرُّوضِ النَّضِيرِ
فَرِحْتُ بِمَالِكٍ رَقِيهَا فَحَرَخَ الْخَمِيلَةَ بِالْغَدِيرِ
وَكَانَتْهُ فِي رِصْفِهَا جَارُ الْفَرَزْدَقِ أَوْ جَرِيرِ"

(الشّريف الرضي، ١٩٩٩، ٤٦٦/١)

ويعبّر الشّريف الرضي عن رقة في ألفاظ قصيدته التي مدح فيه أبا سعيد بن خلف، وعمق في معانيها، فيمتح في معجم الشعراء، ليجد أبا عبادة البحرّي، والحسن بن هاني، المشهور بأبي نواس أفضل شاعرين في التّعبير عن الرقة واللطافة في الشّعر، وذلك في قوله:

(الوافر)

"وَصَلْتُ جَوَاهِرَ الْأَلْفَاظِ مِنْهُ بِأَعْرَاضِ الْمَقَاصِدِ وَالْمَعَانِي
فَجَاءَتْ غَضَبَةَ الْأَطْرَافِ بِكِرَا تَخَيَّرَ جِيدَهَا نَظْمُ الْجُمَانِ
كَأَنَّ أَبَا عِبَادَةَ شَقَّ فَاهَا وَقَبَّلَ نَعْرَهَا الْحَسَنُ بْنُ هَانِي"

(الشّريف الرضي، ١٩٩٩، ٤٣٠/٢)

وفي تعبير الشّريف الرضي في إحدى حجازياته عن عدم جدوى البكاء في عودة المحبين، أو عودة أيام الشّبّاب، استحضر شخصيّة أبي فراس الحمداني الذي لم يفذه بكاؤه في شعره، أثناء أسره عند الرّوم في إعادة محبوبته نوار إليه، وذلك في قوله:

"وَلَوْ أَجْدَى الْبُكَاءِ عَلَيَّ نَوَارٍ لِأَعْيَا الدَّمْعِ عَيْنَ أَبِي فِرَاسِ
فَإِنَّ الْعَيْشَ بَعْدَكَ غَيْرُ عَيْشٍ وَأَنَّ النَّاسَ بَعْدَكَ غَيْرُ نَاسٍ"

(الشّريف الرضي، ١٩٩٩، ٥٧٨/١)

وهكذا يستقي الشّاعر من تجربة أبي فراس الحمداني التي بكى فيها من ألم الفراق، وشدة الحنين والشوق أثناء أسره عند الرّوم، لكنّ هذا البكاء لم يجدي، ولم يوصله إلى نوار، وهذه حال الشّاعر فإنّ البكاء لن يجدي معه نفعاً، فقد تغيّرت الأحوال بعد الفراق، وأمسى العيش بعده غير عيش، والنّاس صاروا غير النّاس الذين عهدهم، في إشارة إلى تقلّب الأحوال، وتبدّلها ممّا يجعل البكاء على المفقود عقيماً.

المبحث الرابع: شخصية المرأة

زخر التاريخ بأسماء نساء لعبن دوراً مهماً في الحياة بجوانبها المتشعبة، وارتبطت بعضهن بقصة أو فكرة أو قضية أو ظاهرة؛ مما دفع بعض الشعراء إلى استحضار بعضهن في شعرهم للتعبير عن معنى، أو إثبات فكرة، أو تجلية عاطفة تعتمل القلب. واستحضر الشريف الرضي مجموعة من هؤلاء النساء اللواتي ضربن مثلاً رائعاً في التاريخ، أو ممن ارتبطن بفكرة ذات صلة وثيقة بالشاعر، أو ممن كان لهن قصة من قصص الحب التي تزينت بها كتب الأدب.

وقد لاقت شخصية فاطمة بنت الرسول محمد -عليه السلام- حضوراً مميزاً في شعر الشريف الرضي؛ لارتباطها الوثيق بمذهب الشاعر العقدي، إذ إنها أمّ للحسين بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنهما-، الإمام الأحق بالخلافة بعد وفاة والده علي -رضي الله عنه- من وجهة نظر الشاعر. وربط الشريف في كثير من شعره الذي استحضر فيه فاطمة -رضي الله عنها- بالرسول الكريم -عليه السلام-، وعلي بن أبي طالب زوجها -رضي الله عنه-، فهذا هو الشريف يستغيث بها قارناً ذلك باستغاثته بهما، وذلك في قوله: (الرملة)

"أَيُّ جَدِّ وَأَبٍ يَدْعُوهُمَا جَدُّ يَا جَدُّ أَعْثِي يَا أَبَا

يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا فَاطِمَةَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُرْتَضَى"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١/٩٥)

(الرملة)

ويقول أيضاً:

"كَمْ رِقَابٍ مِنْ بَيْ فَاطِمَةَ عَرَقَتْ مَا بَيَّهْمُ عِرْقَ الْمَدَى"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١/٩٦)

ويأتي هذا الاستحضر في التعبير عن نسبة الأئمة من الشيعة إلى هذا النسب الشريف الذي ينتهي بفاطمة، كونها أما للحسن والحسين سبطي الرسول -عليه السلام-، وابي علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-.

ويستحضرها الشريف الرضي في التعبير عن النسب النقي الشريف، قارناً إياها بالرسول المصطفى -عليه السلام- في قوله: (الكامل)

"رُدُّوا ثُرَاتُ مُحَمَّدٍ رُدُّوا لَيْسَ الْقَضِيبُ لَكُمْ وَالرُّدُّ

هَلْ عَرَقَتْ فِيكُمْ كَفَاطِمَةَ أَمْ هَلْ لَكُمْ كَمُحَمَّدٍ جَدُّ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١/٤٤٦)

ويستحضر الشاعر فاطمة -رضي الله عنها- في التعبير عن النقاء والصفاء من أي عيب، وذلك في قوله: (الطويل)

"أَبِي لِي عَلِيٍّ وَالنَّبِيِّ وَفَاطِمَةَ جَدُودِي أَنْ يَلُوي بَعْرُضِي عَاب"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١/١٢٠)

واستحضر الشريف الرضي في الحديث عن الطيف والخيال في إحدى حجازياته خيال العامرية، أي ليلي التي ارتبطت في الغزل العذري بقيس بن الملوّح الشاعر الأموي الشهير، وذلك في قول الشريف:

"أَلَمْ خَيَالُ الْعَامِرِيَّةِ بَعْدَمَا تَبَطَّنَا جَفُنُّ مِنَ اللَّيْلِ أُوْطَفُ"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٢/١٦)

وتظهر ليلي عنده باسمها في موطن آخر من حجازياته، قناعاً عن طيف امرأة يعشقها، أو رمزاً لمحبوبة يحبها في قوله: (الطويل)

"فَيَا صَاحِبِي رَحْلِي أَقْلًا فَإِنِّي رَأَيْتُ بَلَيْلِي غَيْرَ مَا تَرَانِي

وَيَا مُرْجِي النَّضْوِ الطَّلِيحِ عَشِيَّةً تُرَاكَ بِيَطْنِي الْمَأْرَمِينَ تَرَانِي"

(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٢/٤٧٤)

وعندما وصف الشريف شجاعة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- في مواجهة معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- قصد إلى التقليل من مكانة معاوية بنسبته إلى أمه هند، ولم ينسبه إلى والده؛ لذا استحضر هنداً بنت عتبة، في قوله: (الطويل)

"أَبُونَا الَّذِي أَبَدَى بِصِفَيْنِ سَيْفُهُ ضُغَاءُ ابْنِ هِنْدٍ وَالْقَنَا يَتَّقَصِفُ"^(٧)
(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ١٨/٢)

وفي حديث الشريف الرضي عن الوفاء والإخلاص والأدب يستحضر عائشة بنت طلحة زوجة مصعب بن الزبير، التي أعلنت عن وفاتها لزوجها ببقائها معه في مواجهة مصيره، صابرة على ما ألم به، عندما ثار على بني أمية، ويظهر ذلك في قوله: (الطويل)

"عَلَى حِينٍ أَعْطُوهُ الْأَمَانَ فَعَاثُهُ وَخَيْرَ فَاخْتَارَ الرَّدَى غَيْرَ نَادِمٍ
وَفِي خِذْرِهِ غَرَاءُ مِنْ آلِ طَلْحَةَ عَلاَقَةُ قَلْبٍ لِلنَّدِيمِ الْمُخَالِمِ"^(٨)
(الشريف الرضي، ١٩٩٩، ٣٧٠/٢)

يكشف استحضار الشاعر لمجموعة من النساء عن تقدير الشاعر للمرأة باعتبارها مثلاً فاعلاً يقتدى به، وقدرة شعرية لديه في ضرب المثل في مكانه المناسب، وعن ثقافة ومعرفة عميقة في التاريخ، وهذا يحقق شعرية خصبة تمتاز بها قصيدته.

الخاتمة:

وقف هذا البحث الموسوم بـ (استحضار الشخصيات في شعر الشريف الرضي) عند هذه التقنية التي لجأ إليها الشريف الرضي في شعره: للتعبير عن جملة من المعاني، والأفكار، والعواطف، وقد تناول البحث الشخصيات المستحضرة في سياقاتها المختلفة: التاريخية، والدينية، والأدبية، وخلص إلى جملة من النتائج أبرزها: أولاً: وظف الشريف الرضي شخصيات عديدة ومتنوعة في شعره، وهي شخصيات تاريخية، ودينية، وأدبية. ثانياً: استحضار الشخصيات بأشكالها المختلفة ينم عن ثقافة واسعة كان يمتاز بها الشاعر، وقدرة فنية في توظيفها في المقام المناسب للتعبير عن المقصد الذي يريده الشاعر. ثالثاً: انقسمت الشخصيات التاريخية التي وظفها الشاعر إلى شخصيات عاشت في العصر الجاهلي، وأخرى إسلامية. رابعاً: ارتبط عدد كبير من الشخصيات التاريخية التي استحضرها الشاعر بتغني الشريف بنسبه الكريم الذي يوصله إلى علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-.

خامساً: شخصية هاشم بن عبد مناف كانت الأكثر حضوراً من بين الشخصيات التاريخية المستحضرة في شعر الشريف الرضي، دلالة على النسب الشريف الذي ينتهي إليه الشاعر، وزهو به، وكونه جدياً للرسول -عليه السلام-، ولعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه-. سادساً: استحضار الشخصيات الدينية في شعر الشريف الرضي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالمذهب الشيعي الذي كان يعتقده هذا الشاعر، وبصفاته الشخصية التي ميّزته عن غيره تلك التي تؤهله من وجهة نظره للوصول إلى أعلى المراكز الدينية. سابعاً: كانت شخصية الرسول الكريم محمد -عليه السلام- أكثر الشخصيات الدينية حضوراً في شعر الشريف الرضي، ويكشف هذا الاستحضار عمق البعد الديني في شعر الشريف الرضي من جهة، وارتباط هذا الاستحضار بالمكانة الدينية التي يستحقها الشريف الرضي من الصلة به. ثامناً: استحضر الشريف الرضي عدداً من الشعراء، وكان هدف هذا الاستحضار في أغلب المواطن هو التعبير عن قدرة الشاعر الفنية، وجمال قصائده وروعيتها.

تاسعاً: كان للمرأة حضور في شعر الشريف الرضي، وارتبط جزء كبير من هذا الحضور بمذهبية الشاعر، بالتركيز على شخصية فاطمة بنت الرسول محمد -عليه السلام-. عاشراً: يضيف الاستحضار إلى شعر الشريف الرضي بعداً جمالياً وفنياً، إذ يعكس ذلك مقدرة فنية لدى الشاعر في توظيف الشخصية في مكانها، وبما تخدمه من تقديم للمعنى، ويوح به.

(٧) الضغاء: الصيحات، (ينظر المعجم الوسيط، مادة ضغو).

(٨) المخالم: الصادق، (ينظر المعجم الوسيط، مادة خلم).

ويمكن للقارئ الذي يقرأ شعر الشَّريف الرضِّي أن يقدم جملة من التَّوصيات يمكن الاستفادة منها في دراسات مستقبلية تتعلَّق بإنتاج الشَّاعر الأدبي، أبرزها:

أولاً: يحوي ديوان الشَّريف كنزاً شعرياً واسعاً، يمكن إنصافه في دراسات نقدية متنوِّعة.

ثانياً: ثمة ظواهر أسلوبية وفنية يمكن تناولها في شعر الشَّريف الرضِّي، ترتبط بالمستويات اللغوية المختلفة: صوتية، وصرفية، وتركيبية، ودلالية.

ثالثاً: التَّركيز في دراسة الشَّريف الرضِّي على الدَّراسة النَّصِّية إذ إنَّ معظم الدَّراسات التي تناولته إلا قلة منها كانت دراسات سياقية في غالبيتها.

رابعاً: جزء كبير من شعر الشَّريف الرضِّي، أو من التَّقنيات التي وظَّفها الشَّاعر، ميدان رحب للتلقِّي والتأويل، فثمة إشارات كثيرة في شعره تبوح بإيحاءات متنوِّعة ومتعدِّدة.

خامساً: يمكن تتبُّع قضية النَّثر عند الشَّريف الرضِّي، وربط هذا الإنتاج النَّثري بالمؤلفات النَّثرية المتقاطعة معها موضوعياً، وإجراء قراءات مقارنة بينها.

ويبقى ميدان البحث في الشَّعر العربي القديم رحباً كونه جزءاً مهماً من تراث أصيل امتدَّ أكثر من ألف وخمسمئة عام، وما يزال ملهماً للشُّعراء، يهلون من معينه الذي لا ينضب.

المراجع:

١. الحلو، ع. (١٩٨٦). الشَّريف الرضِّي: حياته ودراسة شعره. القاهرة: دار هجر. ص ٩١.
٢. الحلبي، ع. (١٩٦٨). حياة الشَّريف الرضِّي. بغداد: مطبعة الحرية. ص ٦.
٣. درابسة، م. (٢٠١٠). التلقِّي والإبداع (قراءات في النَّقد العربي القديم). عمان: دار جرير. ص ٢٤.
٤. زايد، ع. (١٩٩٧). استدعاء الشخصيات التَّراثية في الشَّعر العربي المعاصر. القاهرة: دار الفكر العربي. ص ١٢٠، ١٢١، ٧٨، ١٣٩.
٥. ابن أبي سلمي، ز. (١٩٨٨). الديوان. شرح علي حسن فاعور. بيروت: دار الكتب العلمية. ص ١٠٤، ١١٩.
٦. الشَّريف الرضِّي، م. (١٩٩٩). الديوان. شرح وتعليق محمود مصطفى حلاوي. بيروت: دار الأرقم بن أبي الأرقم. ج ١: ٩٤، ٩٥، ٩٦، ١١٢، ١٢٠، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٢، ١٧٧، ١٨٩، ١٩٨، ٢١١، ٢١٢، ٢٩٣، ٣٧٨، ٣٩٤، ٤٠٢، ٤٠٦، ٤١٣، ٤٤٦، ٤٤٧، ٥٧٨، ٦١٦، ٦٢٢. ج ٢: ١٦، ١٨، ٣٧، ٦٥، ١٠١، ١٣٨، ١٥٠، ١٨٥، ٢٨٤، ٢٨٨، ٣٠٥، ٣٢٩، ٣٣٦، ٣٣٩، ٣٧٠، ٤٣٠، ٤٧٤.
٧. شلش، م. (١٩٨٥). الحماسة في شعر الشَّريف الرضِّي. بغداد: المكتبة العالمية. ص ٩٢.
٨. عمران، ع. (٢٠٠٠). شعر الشَّريف الرضِّي ومنطلقاته الفكرية. دمشق: دار الينابيع. ص ٣٧، ٤٦.
٩. عيد، ر. (٢٠٠٣). لغة الشَّعر: قراءة في الشَّعر العربي المعاصر. الإسكندرية: منشأة المعارف. ص ٣١٥.
١٠. الغراوي، ع. (٢٠١٦). شعر الشَّريف الرضِّي في ضوء علم اللغة النَّصي. عمان: دار دجلة. ص ٥٢٢.
١١. مدكور، إ، وآخرون. (١٩٨٥). المعجم الوسيط. ط ٣، عمان: دار عمران.
١٢. المطرودي، م. (١٩٨٤). الشَّريف الرضِّي: حياته وشعره. الرياض: منشورات النادي الأدبي. ص ٥١.
١٣. الميداني، أ. (١٩٨٨). "مجمع الأمثال". تقديم وتعليق نعيم حسين زرزور. بيروت: دار الكتب العلمية. ٣٢٤/١.



www.refaad.com

المجلة الدولية للدراسات اللغوية والأدبية العربية
International Journal for Arabic Linguistics and
Literature Studies (JALLS)

Journal Homepage: <https://www.refaad.com/views/JALS/home.aspx>
ISSN: 2663-5860(Online) 2663-5852(Print)



Recalling Characters in the Poetry of A-Sharif A-Radi

Khamees Ahmad Rayyan

Ministry of Education, Ramallah, Palestine
Birzeit University, Palestine
khrayyan69@gmail.com

Received : 25/9/2020 Revised : 25/10/2020 Accepted : 18/11/2020 DOI : <https://doi.org/10.31559/JALLS2020.2.4.2>

Abstract: This research entitled "Recalling Characters in the Poetry of A-Sharif A-Radi" illustrates how the poet uses this phenomenon in his poetry and sheds the light on the most prominent figures he invokes in his poetry. In addition, this research examines the factors that led the poet to recall these specific characters. In a nutshell, this research is divided into a preface and four chapters. The preface highlights the internal relationship within the creativity trilogy: the creative mind, the text and the recipient. It also refers to the concept of recalling characters briefly. Moreover, the first chapter is dedicated to explain recalling historical figures in A-Radi's poetry, the second one discusses religious characters invoking, the third one examines literary figures recalling, and the fourth chapter analyzes invoking women characters. Finally, the research concludes that the poet has recalled various characters from different contexts: historical, religious, and literary among which women have a dominant presence. It is evident, though, that there is a strong connection between the poet's choice of the recalled (invoked) figures from one side, and the poet's psychology or attitudes that are rooted in his excessive pride in his honorable lineage and his admiration of the unique qualities and exceptional poetic abilities that distinguish him from other people and make him stand out.

Keywords: recalling; A-Sharif A-Radi; historical figure; religious figure; literary figure.

References:

- [1] 'mran, '. (2000). Sh'r Alshryf Alrdy Wmntlqath Alfkryh. Dmshq: Dar Alynaby'. S37, 46.
- [2] 'yd, R. (2003). Lghh Alsh'r: Qra'h Fy Alsh'r Al'rby Alm'asr. Aleskndryh: Mnshah Alm'arf. S315.
- [3] Abn Aby Slma, Z. (1988). Aldywan. Shrh 'ly Hsn Fa'wr. Byrwt: Dar Alktb Al'lmyh. S104, 119.
- [4] Drabsh, M. (2010). Altlqy Walebda' (Qra'at Fy Alnqd Al'rby Alqdy). 'man: Dar Jryr. S24.
- [5] Alghrawy, 'E. (2016). Sh'r Alshryf Alrdy Fy Dw' 'Im Allghh Alnsy. 'man: Dar Djlh. S522.
- [6] Alhly, '. (1968). Hyat Alshryf Alrdy. Bghdad: Mtb't Alhryh. S6.
- [7] Alhlw, '. (1986). Alshryf Alrdy: Hyath Wdrash Sh'rh. Alqahrh: Dar Hjr. S91.
- [8] Mdkwr, E, Wakhrwn. (1985). Alm'jm Alwsyt. T3, 'man: Dar 'mran.
- [9] Almtrwdy, M. (1984). Alshryf Alrdy: Hyath Wsh'rh. Alryad: Mnshwrat Alnady Aladby. S51.
- [10] Almydany, A. (1988). "Mjm' Alamthal". Tqdy Wt'lyq N'ym Hsyn Zrzw. Byrwt: Dar Alktb Al'lmyh. 1/324.
- [11] Shlsh, M. (1985). Alhmash Fy Sh'r Alshryf Alrdy. Bghdad: Almkthb Al'almyh. S92.
- [12] Alshryf Alrdy, M. (1999). Aldywan. Shrh Wt'lyq Mhmwd Mstfa Hlawy. Byrwt: Dar Alarqm Bn Aby Alarqm. J1: 94, 95, 96, 112, 120, 146, 147, 152, 177, 189, 198, 211, 212, 293, 378, 394, 402, 406, 413, 446, 447, 578, 616, 622. J2: 16, 18, 37, 65, 101, 138, 150, 185, 284, 288, 305, 329, 336, 339, 370, 430, 474.
- [13] Zayd, '. (1997). Astd'a' Alshkhsyat Altrathyh Fy Alsh'r Al'rby Alm'asr. Alqahrh: Dar Alfkr Al'rby. S120, 121, 78, 139.